لا مفر

بقية المنشور على صفحة ١٦

هؤلاء ليكونوا علينا من الشاهدين »

وأخذت شحاتة ربكة أول الأمر ثم قال « وفيم العجلة ؟ الأفضل أن ينتظر قليلا »

فقال الحاج عثمان « كن صريحا وتكلم أمام هؤلاء الرجال . لقد كنت أشد منى رغبة فى أن تزف نعيمة إلى شبل فماذا جرى بعد ذلك ؟ »

فقال شحاتة « أتريد الحق ؟ البنت مجنونة هذه الأيام وأخوها محمد أجن منها والأفضل أن تأخذها بالحيلة والسياسة »

وضحك شحاتة فى صوت مسموع كأنما يريد أن يخفف وقع كلامه على صاحب الدار

فقال الحاج عثمان « ماذا تقول يا رجل ؟ لم يبق إلا أن البنت تفرض إرادتها على أبيها .. ومحمد ما شأنه ؟ هل هو أبوها ؟ أنا لا أرضى لك بهذا ... إما أن تكون أنت الرجل وإلا ... »

فأجاب شحاتة : ماذا أصنع يا إخوانى ؟ سألت الواعظ فقال إن الشرع لا يسمح بأن تزوج البنت رغم أنفها ، ومن تزوجت بهذه الصورة فزواجها باطل فهل نتبع ...

وقاطعه الحاج عثمان قائلا : الله ... الله ... متى أصبحت رجل شرع ... وهل يسمح الشرع للبنت بأن تختار من تريد ؟ ماهذا الكلام ؟ والله لو أن عندى بنتا تفعل هذا لدفنتها حية ... ألا تخشى الفضيحة يا رجل ؟

وضحك شحاتة ضحكات متتابعة فضاق به صاحب الدار وقال له : إما أن تصرح بما فى ضميرك وإلا فلنقفل هذا الباب

فقال شحاتة : انتظر حتى يعود الأستاذ على أخو العمدة وبعد ذلك نتكلم .

فأجاب رب الدار فى غضب : وما دخل الأستاذ فى هذا ؟ ثم تدارك كلامه قائلا : أقصد أنه لا يمنعك من أن تزوج ابنتك لمن تشاء ، وهم على كل حال هو وأسرته رؤساؤنا وكبراؤنا من قديم ... ولكنى لا أرى لهم دخلا فى أمر كهذا .

وكان النسوة يسترقن السمع خارج المنظرة وقالت أم شبل لزوجة ابنها حسن دون أن تعبأ بوجود ابن أختها : وهل يستطيع شحاتة أن يبت فى هذا ؟ الكلمة فى داره كلمة أختى وخير للحاج ألا يتعب نفسه والله لولا أنها بنت أختى ماقبلتها لابنى

وكأنما ألهم زوجها ماتقول ، فصرف الحديث عن وجهه ، ثم انفرط عقد المجلس ، وأخذ الرجال يحدث بعضهم بعضا فى مختلف الشؤون حتى قربت الشمس من المغرب فأخذوا ينصرفون . وكان شحاتة أول من

تسلل من المنظرة .

* * *

عاد على من سفره فافتقد صابرا بضعة أيام ثم سأل عنه فسمع إجابات مختلفة ، فمن قائل إنه سافر ليعمل فى عمارة تبنى فى مدينة قريبة وسيعود بعد أيام ، ومن قائل إنه عبر إلى الشط الغربى ليعمل فى البحيرة فقد ضاق بالعيش فى قريته لأن أباه يأخذ ماله فينفقه فى القهوة على جلسائه ، وهو يريد أن يقتصد مهره مما يكسب . ولقد دهش على مما سمع ولكن دهشته لم تطل . فقد مر به محمد شحاته فقال له إن المرض قد اشتد على صابر بعد أن شفى منه ، وأمه لا تحب أن يراه أحد حتى يبرأ مخافة أن يشمت به شبل وأهله ، ولذلك فهى تخبر من يسأل عنه أنه سافر فى عمل مع البنائين وسيعود بعد أيام

وشخص على بين المغرب والعشاء وحده إلى دار صابر ، فألفى فتحية وحدها على مقربة من الباب وقد وضعت رأسها بين رجليها فى صورة حزينة زاد معنى الحزن فيها ضحكات غناء لداتها وضحكهن على مقربة منها

وطرقت فتحية الباب ونادت أمها ففتحت لها ، فقالت الصبية وهى تدفع الباب «اتفضل يا سيدى» . فقال على «يا ساتر .. مساء الخير يا حاجة» وأخذت حسونة ربكة أول الأمر ثم قالت «مساك الله بكل خير يا سيدى ... أهلا وسهلا» وتناولت يده وانحنت لتلثمها فجذبها فى رفق وعيناه على صابر ، وقد تمدد على المصطبة ودون المسرجة فى الكوة فوق رأسه ؛ وكان صابر راقدا على ظهره ووجهه إلى أعلى ولم يستطع أن يلتفت قدنا على منه وقال وهو يتكلف الابتسام «لا بأس عليك يا صابر .. مالك؟!» ورد صابر فى صوت خافت قائلا «لا أراك الله ما أنا فيه يا سيدى ... أشكرك ... حتى كأن فيه ... را»

وجلس على على حافة المصطبة عند قدمى صابر ، فإذا هو حيال منظر كم تمنى لو لم يره ولكم حاول جاهدا أن يمسك دمعه وأن يتكلم دون أن يتهدج صوته . أهذا هو صابر الذى كان مضرب المثل فى قوة البدن ونضرة الوجه ؟! إنه يرى يديه من تحت الغطاء نحيلتين معروقتين كأنهما يدا شيخ ! ويرى وجهه الذى كان يترقرق فيه ماء الشباب وقد غدا مسنونا مصفرا كأنما عفره الموت بترابه . ثم إنه يرى فى أسارير هذا الوجه الذى يقع عليه نور المسرجة ما لم ير مثله قط لا فى حقيقة ولا فى خيال من صورة الألم البشرى ، ويستمع إلى أنات صابر وهو يكتمها تجلدا وإشفاقا على أمه فيهتز قلبه اهتزازا

وقال على وهو يهش لصابر متكلفا

كن رجلا كعهدى بك يا صابر .. كل إنسان يمرض ويشفى ... فهمس صابر كى لا تسمع أمه قائلا « لا ... لا مفر من الموت هـذه المرة » وقالت حسونة « حسبهم الله .. يارب أنت حسبي على الذين عملوا هـذا بولدى ... أنا مسكينة يا رب وأنت عالم بى .. يا رب أنت حسبي » ثم انتهت نشيجها إشفاقا على ابنها ومسحت دموعها بكفها

قال على « أرى هنا دواء فى زجاجة على الرف فهل رآه الطبيب ؟ وماذا قال ؟ »

فقالت أم صابر « ذهب ابنى إلى الطبيب قبل أن يشتد المرض فأعطاه هذا الدواء ولم يقل شيئا »

فقال على « إن شاء الله يشفى ... لا تخافى يا حاجة »

فقالت حسونة « ربنا موجود ياسيدى . يشفيك ولا يسيئنا فيك »

وعافل على المرأة وأخرج من جيبه بعض أوراق النقد فدسها تحت مخدة صابر ؛ وفجأة فإذا بصابر يزفر زفرة خفيفة ثم تنحدر دمعتان على خديه ، وغمغم صابر ببعض كلمات الشكر ، ونهض الأستاذ ليخرج فقال « سأقابل الطبيب وإن شاء الله ماهناك إلا الخير » وأمسك بيد صابر مسلما وهو لا يقوى على النظر ثانية فى وجهه ، وقال « لا تخف يا صابر كن جدعا » فقال صابر فى همس « لست خائفا . سيريحنى الموت ... لا يذل الإنسان إلا المرض »

وتبعت فتحية عليا إلى خارج الدار فناداها ووضع بعض القروش فى يدها الصغيرة فقالت فى غير مناسبة « بعنا العجلة ياسيدى .. عجلة صابر أخى فإن أبى عليه إيجار لم يسدده ... ولم يكن عندنا ذرة ولا فلوس للحكيم والدواء من يوم أن مرض صابر وانقطع عن العمل ... وكان صابر يربى العجلة ليدفع ثمنها مهرا لنعيمة فهو يحبها يا سيدى وهى تحبه ... ولما سحبنا العجلة إلى السوق لم يغضب صابر أبدا . ربنا يشفيه ياسيدى ! من لنا غيره ؟ »

واتفق أن التقى على فى هـذه الليلة بالطبيب فعلم منه أن مرض صابر حصاة فى الكلى وخير علاج له أن تجرى له جراحة ، فاعتزم على أن يرسله فى غده إلى المستشفى فى عاصمة الإقليم . وقضى على ليلته مكتئبا يسائل نفسه كم فى القرية من أمثال صابر ممن يعيشون على عملهم يوما فيوما . فإذا أقعدهم المرض عن العمل لم يجدوا ماياًكلون !

وطاف بخاطره قول صابر لا يذل المرء شىء مثل المرض . وهزت نفسه من أعماقها دمعتاه اللتان انحدرتا وهو يدس له النقود تحت المخدة ولم يغب عنه ماوقع عند ذلك فى

نفس الفتى من معنى أبكاه . وحين أوى إلى فراشه تذكر وحصاة الكلى فى خاطره أنه رأى صابرا منذ سنتين فى الحقل وقد جلس على حافة قناة كأنما يقعى، ووضع قدمه فى قليل من الماء فى قاع القناة كان نصفه طينا فشرب منه وعجب يومئذ كيف يفعل ذلك ولا يصيبه الضر

* * *

فقدت دار شحاته الخولى ما عرفت به بين الدور من مرح أهلها ورضاهم عن حياتهم . وأحس أهل الحارة بالكآبة تغشى هذه الدار ، فالرجل دائم الخلاف مع امرأته ، وامرأته عابسة مهمومة أبدا ، وابنها لا يكاد يكلمها أو ينظر إليها ، ونعيمة التى كانت بهجة الحارة والتى كانت لا تدخل دارا إلا ملأتها مرحا لا ترى اليوم إلا صامتة محزونة . ولكن الناس لا يحارون فى تعليل ذلك فهم يعرفون أن الرجل لا يريد أن يكره ابنته على الزواج من شبل عملا برأى الواعظ . والمرأة يؤلمها ويثير عنادها أن ترى الرجل يخالفها بعد موافقة وهو لم يكن يرد لها طلبا مهما كان ... وكثيرا ما يشتد الجدل بين الرجل وزوجته حتى يوشك ذلك الجدل أن يستحيل إلى معركة

وتحدثت زينب بنت صالحة مع بعض النسوة فقالت : إن نعيمة ثارت فى وجه شبل وعنفته منذ أيام فى دارها حين ذكر صابرا أمامها بالسوء ، وقالت له إن الشماتة ليست من خلق الرجال ، وإنه ليس له أن يفرح فإنها علمت من أخته فتحية أنه شفى بعد أن نجحت الجراحة وأنه عما قريب سيعود إلى القرية

قالت زينب : فسألها شبل وماذا يأكل فى داره حين يعود ؟ فقالت نعيمة : إنه رجل وإنه يأكل من عرق جبينه ولا يعتمد على مال أبيه

فقال شبل : ويحمل الطوب والفحم .. فأجابته نعيمة : وأى عار فى ذلك ؟ ألم يكن أبوك يعمل أجيرا فى شبابه قبل أن يشترى ما يملك من أرض ؟ فثار شبل وسمعت خالته ثورته فأظهرها على ما قالته نعيمة فأهوت عليها ضربا بعصا أخذتها من يد شبل ، ولكن نعيمة انتزعت العصا من يد أمها وحاولت أن تكسرها على ركبتها واتجهت إلى شبل قائلة : قل ما تشاء فليس يهمنى ما تقول . وماذا أفاد ما كنزته أمك ؟ ثم استدارت وقالت لأمها : والله لو قتلتمونى ما أرجع عن رأيى .. ألم تتزوجى أنت أبى على الرغم من أهلك كما أخبرنى الناس ؟ ثم ألم تهددى أهلك بأنك تحرقين نفسك إذا منعوك عنه ؟

قالت زينب : فاستخذت أمها واستخذى شبل . وحضر أخو نعيمة فكاد أن يضرب شبلا لولا أن جاء أبوه شحاته فنهره وأخرجه من الدار واعتذر لشبل عما فعل ابنه

وشاع حديث زيب فى القرية . وأخذ أصحاب صابر يترقبون عودته فقد آلمتهم شماتة شبل كما آلمهم حزن نعيمة وشقاؤها وقال من زاروه منهم إنه بخير وإنهم فرحوا حين رأوه وقد أخذت تعود إليه عافيته . وقد أوصى الأستاذ على به الأطباء وزاره أكثر من مرة فاهتم به كل من فى المستشفى

* * *

تمردت نعيمة ولم تعد تذعن لأمها فتبقى فى الدار لا تبرحها ، وشكتها أمها إلى أبيها فأدار لها ظهره قائلا : وممن تخافين على ابنتك وصابر فى المستشفى لا يعلم إلا الله متى يعود ؟

ويرى الناس نعيمة صامتة تتسمع الأنباء عن صابر ولا تتكلم ، ولا تجرؤ الفتيات أن يمازحنها اليوم وأملهن يرثين لها

وكانت عائدة من دار زينب ذات ليلة بعد المغرب مهمومة تدور طرحتها برأسها ووجهها فى صورة حزينة فصادفها على وقد نزل من سيارته على الطريق الزراعى . فأحست أنه قادم من زيارة صابر ، فنظرت إليه فى لهفة . وكان على يعرفها منذ صغرها وكثيرا ما كان يداعبها ، ولم يزل يستوقفها ويضاحكها كلما رآها حتى أصبحت فتاة ناهدا . وإنه ليذكر يوم أن رآها أول مرة وهى فى العاشرة أو دونها قليلا فاستوقفها وكانت مع عدد من البنات وقد استرعت بصره بينهن بجمال وجهها وخضرة عينيها وصفرة شعرها فسألها عن اسمها فجرت ضاحكة واندست بين أترابها ولم تجب

وناداها هذه الليلة وقد رأى اللهفة فى نظراتها ومد إليها يده مسلما فألقت عليها ولثمتها . وأحس أنها تريد أن تسأله عن صابر ، ولكن الحياء يمنعها فقال لها ضاحكا : احزرى من أين أنا قادم . فابتسمت ولم تتكلم وارتسم على وجهها شئ من الاطمئنان ، فقال : إنه بخير وعما قريب تجدينه فى البلدة . وتضرج وجهها الجميل وتألقت بالغبطة والشكر عيناها وأدارت وجهها عنه فى حياء تحاول أن تخفى سرورها . ولما مد إليها يده مودعا لثمتها مرتين فى حماسة تعبر له بذلك عن عظم شكرها إياه

* * *

لم يكن يعلم أحد فى القرية متى يعود صابر من المستشفى ، وإن كان صحابته وأهله يعلمون أنه تماثل للشفاء . ومضت أيام بعد شفائه ولم يعد . ثم ما لبث أصحابه أن أصبحوا يشفقون عليه من العودة ويتمنون لو امتد أجل بقائه فى المستشفى

وأنزلت سيارة عامة صابرا ذات مساء على الطريق الزراعى فى مدخل القرية ، وسار نحو داره من طريق ضيق قلما سلكه من قبل ، هو أقرب الطرق إليها . ورآه بعض

الناس قبل أن يقرب من داره ، فكانوا يسلمون عليه مظهرين فرحهم لشفائه ولكنه كان يلمح فى وجوههم ما يشبه الرثاء له ، كأنما يخفون عنه مالا يحبون أن يفاجئوه به ، ورأى ذلك جليا فى بعض الوجوه فقد كان يرتسم عليها فى وقت واحد السرور لشفائه وذلك الرثاء الصامت الحزين الذى ينفذ إلى قلبه فيختلج بين أضلاعه ، حتى لقد انتحى بأحدهم ناحية وسأله قائلا « هل ماتت أمى فإنى قدرت أنها ستموت وأنا فى المستشفى » ولكن صاحبه أكد له أن أمه وأباه وأخته بخير

ودخل صابر داره ، فلم يجد إلا فتحية ، فأقبلت عليه مسلمة ، وأسرعت فأوقدت المسرجة فى الكوة ، فرأى فى وجهها رثاء وحزنا كانا فيه أبلغ مما رآه منهما فى وجوه الناس ، فدق قلبه وسألها عن أمه فقالت إنها فى إحدى الدور القريبة وإنها ذاهبة لتدعوها ... فسألها أخوها ماذا تعمل أمه فى تلك الدار ، فبدا الحزن على وجهها وقالت بعد تردد « تقترض بعض المال لتشترى ذرة »

ثم جلست بجانبه على المصطبة تنظر فى وجهه وقد ابيض وانضح لون المسفورين الزرقاوين فى عارضيه ، ثم قالت فى سذاجة لا تخلو من ألم وغيظ « نعيمة تزوجت يا صابر وزفاها الليلة بعد العشاء » فأسند صابر ظهره إلى الحائط وقد جف ريقه وارتعدت يداه . ومضت أخته تقول وهو ينظر إليها صامتا هادئا « وكانت تبكى ليلة الحناء وتلطم وسط النساء والبنات بيديها قبل أن يحنوها ؛ وكانت أمها تشتمها ونعيمة تقول يا خيبتى يا سوء حظى .. ماذا صنعت يا رب ؟ وبكت بعض البنات والنساء لبكائها . وسمعت من زينب أن أباها لطمها على وجهها حين رفضت أن توكله للعقد وقال لها ستفضحيننى فى البلدة والله أذبحك وأدفنك الليلة . فلم ترد وظلت تبكى فقال له الحاج عثمان زوج خالتها تعال إلى المأذون فهى موافقة ونحن شاهدون .. وقالت زينب أيضا إنها ظلت تبكى طول النهار . ورأيتها أنا بنفسى العصر وحولها بعض أقاربها فقالت لأخيها محمد وبعض أصدقائه أليس فيكم رجل ؟ خذونى إلى جهنم .. يا رب أريد أن أموت .. ماذا جنيت يارب ؟ ثم لطمت وجهها ودعت على أبيها بأن لا تطلع عليه الشمس .. » ثم أجهشت فتحية وقالت « وسمعت بأذنى سلفتها زوجة حسن تقول لها « أتبكين لأنك ذاهبة إلى دار خالتك دار العز بدل دار الفقر ؟ وماذا كنت تجدين حول صابر وأهل صابر إلا الجوع والشقاء والعمل مع البنائين ؟ »

فربت صابر على كتف أخته يكفكف دموعها وقال لها فى صوت خافت « إذهبى فأخبرى أمك بمجيئى » وما كادت تبتعد أخته عن الدار حتى خرج هائما على وجهه لا يدرى إلى أين يتجه ولا أين يبيت ليلته ، ما يطيق أن يبيت فى البلدة ، وكان يقف كلما مشى بضع خطوات يريد أن يرجع لبرى أمه ، فماذا عساها تصنع حين تأتى فلا تجده فى الدار ؟ ولكنه كان يعود فيمضى مسرعا وما زال مترددا بين المضى والعودة حتى اقترب من محطة السكة الحديد فقابلته إحدى الفتيات فعرفته فى الظلام وسلمت عليه هاشة فرحة بشفائه ، ولكنها انزعجت لما تراه فى وجهه من ذهول واضطراب ، فأدركت ما به . وسألته إلى أين يذهب فقال « سأعبر النيل إلى البحيرة لأعمل هناك » فقالت له « بعد أن تسترد عافيتك ، وهل تقوى على العمل إلا بعد أيام ؟ لمن أجل بنية كهذه تهجر البلدة ؟ العرائس كثيرات يا صابر وأنت ظفرك تألف .. تعال .. تعال ارجع معى » ومدت يدها تمسك كمه فدفعها فى رفق وابتسم فى هدوء كأنه لا يحس شيئا من ألم أو يأس وهمس بقوله « قولى لأمى إنى عائد قريبا و .. وقولى لنعيمة تعيش فى هناء مع زوجها إن كانت تحب أن ترضينى »

* * *

سمع الناس الزغاريد بعد العشاء تنبعث من ناحية دار الحاج عثمان . ولكنهم مالبثوا أن سمعوا صياح امرأة ينبعث من ناحية أخرى متتابعا متقطعا وتبينوا فيه حرقة الحزن وشدة الجزع . وتساءل الناس ، فقال بعضهم إنها أم صابر كما أخبرتهم بعض النسوة فراح يؤكد هؤلاء أن ابنها مات فى المستشفى . وقال البعض إنه جاء الليلة وإنهم رأوه بأعينهم فلعله مات فى الدار . ووقف القوم حيرى حتى جاء رجل من ناحية تلك الدار فأخبرهم — وهو يكرر قوله : لا حول ولا قوة إلا بالله — بأن صابرا قتل فى المحطة وقد شاع أن سالما هو الذى قتله

وما هى إلا لحظات حتى أسرع كثير من الشباب والرجال والنسوة صوب المحطة . وقد سبقتهم إلى هناك حسونة أم صابر صائحة مولولة ومعها بنتها فتحية تبكى وتصرخ ، بينما كان أبوه لا يزال فى القهوة لا يعلم شيئا

ووقف الجميع منصتين متزاحمين حول خفير « الزلقان » وهو يحدث الأستاذ عليا وكانت تشيع بعض ألفاظ الخفير فى صرخات حسونة وقد أحاط بها بعض النسوة وأمسكن بذراعيها إشفاقا على وجهها من

اللطمات وهى تقول ولدى .. ولدى .. فى حرة تقطع أغلظ القلوب ، ودموعها تغرق خديها السايلين

قال الخفير : لقد كان معى صابر يحدثنى وكان هادئا مبتسما ، وقد رثيت له حين علمت أنه عاد الليلة من المستشفى وحين فطنت إلى أنه لم يطق أن يبيت فى القرية ، ورحت أهون له الأمر فنظر إلى لحظة وقال يحدثنى عما فطنت إليه من سبب لهجرانه البلدة: مابقائى بالبلدة وإن أستطيع العمل لأكسب قوتى قبل شهر على الأقل كما قال الطبيب ؟ وماذا أصنع يا أخى ؟ هل أتسول وأنا الذى ما أخذت قرشا إلا بعرق جبينى ؟ ثم تنهد تنهدة طويلة وزم شفتيه كأنما اعتزم أمرا وأومأ برأسه مرات وعاد يقول : ما أوجع الشماتة فى الجسد الحر .. هيه كان الله لأمى

وصفر القطار واقترب فما راعنى إلا صابر يلقى بنفسه تحت عجلاته . ودق الخفير كفا بكف يعبر عن دهشته ، وأجهش أكثر الفتية والرجال ، ونظر من كان منهم قرب القضبان إلى غطاء يغطى جثة صابر وقد وضع قربها فانوس ووقف حولها موظفو المحطة والحزن فى وجوههم . وبات بعض أصحاب صابر إلى جانبه ... إلى جانب جثته حتى يسمح بنقلها . وعاد الآخرون إلى القرية واجمين دامعين ، فلما مروا بدار الحاج عثمان لم يتمالكوا أنفسهم فحطموا المصباح القوى المعلق ببابها وعفروها بالتراب

محمود الخفيف

رواية شاب لصارى

حل اللغز الذى نشر فى العدد الثالث من الرواية تحت هذا العنوان

لقد ذكر مساعد الصراف أنه أطفأ النور حين سمع أقداما على السلم فى أسفل البناء ، فكيف استطاع إذن أن يرى فى الظلام رقم التليفون حين استدعى البوليس ؟ هذا دليل على اختراع القصة كلها . ولذلك أقر المأمور أنه هو السارق